تأديب نفس !!

صلى أحد العارفين القدر الذى يصليه كل ليلة ، وما كاد الخيط الأبيض يبدو فى السماء ، حتى أخذ منه التعب والجهد مأخذاً كبيراً ، ونال منه الإرهاق والضعف نيلا دفعه إلى الاستلقاء على الأرض ؛ ليسترد قواه المضمحلة ، وعزيمته الكليلة الواهنة . .

لقد بقى الليل كله قائما لله ، يصلى حينا ، ويقرأ من كتاب الله ، ما يشرح الصدر ، ويغذى الروح ، ويطمئن القلب ، ويمكنه من التدبر فى معانيه ، والتفكير فيما يرمى إليه ويحويه !.

هذا الليل الذى ينام فيه الناس ، ويجد كل منهم متعة جسمه ، ولذة بدنه ، لا يحظى منه بشىء من هذا ، وإنما يرى فيه ميداناً للعبادة ومجالاً للاستزادة ، وحافزاً للتمتع بالقرب من الله ، والإقبال عليه ، والاستجابة لداعى الآخرة ، حيث لاينفع الإنسان إلا ما قدمت يداه ، وتوفر فيه صفاء الطوية ، وإخلاص النية ، وسمو الغاية ، ونبل المقصد ...

وخاف أن يدركه الغرور ، وهو باب من أبواب الشر ، يخشاه العارفون كل الخشية ، ويفرون منه فرارهم من فواتك الأسود ، وضوارى السباع ، ولا يألون جهداً فى تهذيب نفوسهم ، وتأديبها على الدوام ، ما وسعهم الجهد ، وواتتهم الطاقة ، وهم بما يلاقون فى سبيل تأديب نفوسهم وردها إلى الخير جد سعداء . .

والنفس عند العارفين كالطفل الغرير ، لا يعرف الخير من الشر ، لهذا يجب ألا يترك وشأنه ؛ ينال كل ما يريد ، ويحصل على ما يهوى ، فإن مطالبه لا تنفد ، ولا تقف رغباته عند حد ، ومن الخير له وللناس أن يحال بينه وبين هذه الرغبات ، ولا يعطى منها غير الصالح المفيد ..

ولهذا قال قائلهم :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ولن يتهاون أحدهم مع نفسه إذا وقعت منها مخالفة ، ويحاكمها محاكمة دقيقة ؛ وكأنها شخص آخر ، يفهم ويدرك ، ويتكلم ويخاطب ، ويجب أن ينال نصيبه من التعنيف والتأديب ، وإلا صارت شهوانية حيوانية ، لا يردعها رادع من دين أو خلق ، ولا يزعها وازع من حق أو ضمير .. !!

* * *

وذات مرة حينما شعر هذا العارف بالتعب والإضناء ، وكان فى ذلك الوقت جالساً فى المحراب ، مد رجله فيه ، ليستجم قليلا ، حتى إذا ما شعر بالراحة والاستجمام ، قام من فوره يتابع صلاته ، ويديم قراءته وتلاوته ..

ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى نودى من وراء الغيب ؛ فى رهبة وعظمة ، وجبروت وكبرياء :

« أهكذا تجالس الملوك .. ؟ ! »

ودوّى هذا الصوت فى اذنيه دويا مخيفاً ، ووجد له فى قلبه صدى ملك عليه جميع حواسه ومشاعره ؛ فى قوة وعنف ، وكأنه عقاب أليم ، وتهديد صارم ، لاعتاب رفيق زقيق .. !!

حقا إنه ليس من الأدب أن يمد رجله هكذا فى المحراب ، حيث يتجه بوجهه إلى الكعبة ؛ مكان الرحمة والعفو ، والبركات والرحمات ، والتجليات الغامرة ، وموطن العبادة والتقديس . .

يالله ! أهكذا يبرهن على سوء أدبه مع ربه ، ولا يراعى آداب العبادة ، وحقوق المحراب الذى يضع فيه جبهته ، ويتجه فيه إلى ربه بكل قلبه ، ويتجرد من الدنيا وما فيها ، معرضا عن لذاذاتها ، زاهدا فى شهواتها ، غير آبه بكل ما فيها ؛ لأنها تصرفه عن ربه ، وعن العبادة الصحيحة ، والاتجاه الحق ، الذى يشترط فيه التجرد من العباد وأمانى العباد ، ولا يكون فى القلب غير الله وما يريد ، وبغير هذا لا تنفع عبادة العارفين . .

وأخذ الصوت يدوى فى عنف وقسوة ، هدّت بدن هذا العارف ، الضئيل البدن ، والنحيل الجسم ، وكادت تمزق قلبه تمزيقا شديدا ، فهذا من سوء الأدب مع الله ، والجهل بما يجب له من الإجلال :

أهكذا تجالس الملوك . . !!

لا ما هكذا تجالس الملوك ، لقد أخطأت يارب ، وأسأت الأدب ، وجاوزت الحد ، فأسألك العفو والمغفرة . . إنها النفس يارب ، المجبولة على الشر ، وسوء الأدب ، والمطبوعة على المخالفة والعصيان ، وإننى مقصر كل التقصير ؛ إذ اندفعت معها ، وأنلتها ما تريد ، فى حين أننى مأمور بمخالفتها ومجاهدتها ، حتى يستقيم أمرها ، ويصلح شأنها ، وتصبح نفسا ربانية ، ليس لها حظ فى الدنيا ، من متعة ولذة ، إلا متعة القرب منك يارب العالمين ، والحظوة برضائك وعفوك ، ومحبتك الخالصة . . !

إن النفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة ؛ فإذا لم يردها العبد عن

هذه الغاية ، ويحكم قيادتها والسيطرة عليها ، أفلت الزمام من يده ، وناله من جرّاء ذلك الشر الماحق ، والخطر الداهم ، والدمار المبير .. فيجب على العبد أن يرد نفسه بحسن مطالبتها دائما بالرجوع إلى الخير ، فإن أبت ذلك ، حملها عليه حملا ، وأخذها به أخذاً شديداً ، فمن أعرض عن الجهاد فى سبيل النفس ، فقد أطلق لها العنان ، وغفل عن الرعاية ، فسرعان ما تورده موارد الهلكة والبوار . . !

* * *

وضم العارف رجله ، وقد شعر بأنها خدرت ، وكأنما أصبحت منفصلة عن بدنه ، وخيل إليه أن قطعها أهون عليه من ذلك العتاب الشديد ، والتأنيب المهين الذى استمع إليه ، يهتف به صوت القدر من جانب الغيب ، فعكر صفوه ، وكدر خاطره ، وآلمه أشد الإيلام . .

ولكن هذا لا يكفى ، ولا بد أن يعمل عملا يعاقب به هذه النفس التى أعطاها شهوتها ، ومنحها رغبتها ، وأرخى لها الزمام . . يجب أن يؤدبها فوراً ، حتى تتذكر الله الذى غفلت عنه ، وجاوزت حدوده ، وتهاونت فيما لا يصح التهاون فيه ، ولهذا هتف قائلا فى عزم :

— وعزتك وجلالك ؛ لا مددت رجلى أبدا . . !

وبرّ هذا العارف بقسمه ، ونفذ ما صمم عليه دون تهاون ولا تقصير ، وبقى هكذا طوال حياته لا يمد رجله إلى أية ناحية ، ليعطى بدنه راحته ، وجسمه حريته ، وظل رافعا على نفسه سوط العذاب . .

وقد روى الجنيد عنه : أنه بقى ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا . . !